Issue 6079 Monday 2/7/2018
الزمان – السنة الحادية والعشرون العدد 6079 الاثنين 18 من شوال 1439 هـ 2 من تموز (يوليو) 2018 م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vol/21 . UK

من بلاد الثلج إلى بلاد النار 1-2

صوت الجمال والثقافة والوفاء والنضال يهاتفنا

حميد الحريزي
النجف

من هو هاتف
عراقي نعم ، مهندس نعم ، مناضل نعم ، شاعر نعم ، مثقف نعم ، وفي نعم .... ماذا عسانا ان نقول او نصف انسانا شقيقه جمال ، ومرضعته وفاء ، ومربيه نضال ، نعم انه هاتف بشبوش وكفى به عراقيا وفيا صادقا خبر درابين الحب والشعر والجمال منذ نعومة اضفاره ، عشق نهر السماوة الجميل ، وتوسد ارضها تحت ظلال نخيلها عشيق السمراوات الفاتنات ((نخل السماوه يكول طرتني سمره ...)).

كما اختار الهندسة ليحق حلمه الكبير في ان يهندس البلاد لتكون منارة للجمال والحب والعدالة ، فقد هندس طريق العدالة والحب والسلام بين البشر طريق الشيوعية خلايا مخه ليسلك هذا الطريق الوعر الشاق في بلاد البترول والفقر ، في بلاد الخصب والسبخة ، في بلاد الجمال والقبح ، في بلاد الرقة والبداوة ، في بلاد الوفاء ونكران الجميل، في بلاد الحب والكراهية ...

نعم ولد وترعرع وتربى وتعلم وعشق في سماوة البساطة والرقة حيث الفرات ونسماته العذبة العليلة التي تقاوم ببسالة وإصرار لهيب الصحراء وغلظتها على مر العصور.

شموخ الجبال

شهد شموخ النخيل وعطاءها ، وشموخ الجبال وكبريائها في سليمانية كاوه الحداد وكوران الابداع ، كما انها اذاقته سجن الديكتاتور لأنه عشق زنابقها الحمراء ومشاعلها الثائرة ضد القبح والظلم والطغيان ...

ضاقت علية وديان وسهول وجبال وصحارى عراقه الحبيب ، فيمم وجهه صوب فضاء الحرية والسلام ، الى فضاء الكرامة والحب ، فاستوطن بلاد الثلج الدنماركي التي لم تطفئ لهيب شعلة ((هاتف)) التي تسعى لإنارة ظلام بلده الحبيب ، وزرع نور الحرية في بلاده المأسورة من قبل قوى القهر والطغيان الديكتاتوري الصدامي ، والتي لم تزل ماسورة ومقهورة من قبل قوى الفساد الدم قراطي المتخادم مع قوى الامبريالية العالمية بقيادة امريكا المال والاستغلال والاحتلال .

لكن جذور الطفولة والصبا والشباب ظلت عصية على القلع من تربتها العراقية السماوية رغم قوة مغريات ارض الثلج وجمالها الساحر وفضائها النقي الحر ، بل زاد كل هذا المناخ الساحر من جذوة النضال والإصرار لدى الهاتف الغريد الذي تمكن ان يمزج بين صوت الربابة وصوت الكيتار لينتج صوتا شعريا ونضاليا وإنسانيا باذخ الرقة والسحر والجمال ، تمكن من قلوب الاحرار في الشرق والغرب ، فرقصت له السماوة كما رقصة له ستوكهولم ...

ففي الوقت الذي استطاب فيه كؤوس ويسكي وبراندي وجعة الدنكارك والسويد واسبانيا لم ينسى طعم فناجين قهوة السماوة ولا ازقتها ودرابينها ، لم ينسى شارع باتا ولا مقهى .... بل ظل يتنفس عبير المسك ، ويتلذذ بمسكوف سمك ابي نؤاس وعرق بعشيقة وفريدة وشهرزاد العمارة ، ومسموطة البصرة ، وطرشي النجف ، وبرتقال كربلاء ، ورمان شهربان ، وجوز اربيل وشربت الحاج زباله .

في الوقت الذي غاص في بحر سيقان حواري الغرب الشقراوات وذاق شهد الرضاب وعسل المنخفضات والقباب كأنهن حور العين ، ولكنه ظل يحلم بجسد سمراء سماوية يطرحها تحت ظل شجرة خستاوية ...

في الوقت الذي متع النظر والفكر بمشاهد وصروح الحرية في بلدان العالم الفسيح لم يغب عن باله ولم تنس ذاكراته قلعة ((نقرة السلمان)) القصية حيث الرعب والعزل والموت في بلده الحبيب...

ركب السفن والمتروات والقطارات والطائرات ليجوب كل ارجاء العالم تحمله اجنحة الحرية والبحث عن الجمال في مرابع الجمال لم ينس قطار الموت البعثي الفاشي الذي القى بحمله بشر اشباه احياء من اشرف وأنبل وأوفى ابناء العراق في محطة قطار السماوة كصورة عن أبشع وأحقر وأقسى جرائم الفاشية البعثية ضد أحرار العراق من المناضلين الشيوعيين وأصدقائهم بعد انقلاب 8شباط الفاشي 1963 .ولم ينس سيارات 18 راكب ، وسيارات دك النجف ولا مشاحيف نهر السماوة ، ولا العربات التي تجرها الحمير.

وقد اعاد البعث الكرة بطشا وملاحقة وقتلا للشيوعيين بعد انهيار الجبهة المهزلة في 1978، فتناثرت النجوم الحمراء بين من احترق بنار الفاشية ، او حرب القادسية ، او خمد نوره وتحول رمادا ، او سلك طريق المنافي في غرب وشرق الارض حفاظا على مبادئه وروحه وسلامته ، وقد كان هاتف بشبوش واحدا ممن سلك طريق المنفى الاجباري ...

في المنافي هناك من اعتزل ذكريات الوطن وذكريات النضال وانغمس في حياته الخاصة حد العدم او حد التنكر لكل ما هو عراقي ، وهناك من جند نفسه لصالح قوى مناهضة لشعبه ووطنه وكانت لوقت قريب من اشد والد اعدائه مبدئيا وإنسانيا ،وهناك من قتله الحنين فأوغل في عالم الحزن والكمد والإدمان محاولا مسح ذاكرة العذاب والألم ونسيان الديار والأحبة والذكريات ، هذا النهج الذي ينقلب ضد المراد منه فيكون كمن ينفخ في نار هامدة فيؤججها لتزيد استعارا واورا مما ادى الى هلاك مثل هذه الارواح الرقيقة الشفافة واغرقها في بحار الحنين والألم .

افكار فذة

في حين صقلت هذه المنافي افكار وفلذة اجساد العديد من المنفيين الاخرين ، تمكنا من حل المعادلة والإمساك بسر الصراع ، وقراءة خارطة طريق الكفاح الطويل من اجل عالم افضل واجمل ليسود الحب والسلام والحرية كل شعوب الارض ومن ضمنها العراق ، فنهلوا من بحار المعرفة في هذه البلدان وتالفوا مع شعوبها متفهين معنى التضامن والتعايش الانساني في كل مكان ، وتمكنوا من مد خيوط وروابط التواصل مع احبتهم في العراق رغم قساوة الظروف ، وقد انتهجوا وابتدعوا مختلف الاساليب لإدامة هذا التواصل الايجابي المنتج ، فأنتج هذا السعي اروع علاقة من التواصل واللحب والوفاء بين الطرفين .

كان للفنانين والمفكرين والأدباء دورا كبيرا في التعريف بقضية شعبهم العراقي ومعاناته القاسية من عسف الديكتاتورية والعدوان الاحتلالي الاستعماري والقهر ((الدم مقراطي)) الفاسد في الوقت الحاضر، فهم الصوت الحر والقوي المعبر عن ضمير احرار بلد لازال اسير قوى التخلف والقهر والظلام والفساد رغم ما البسته الامبريالية الامريكية ثوب الديمقراطية المهلهل والفاضح لخبثها وجرائمها في كل العالم ومنها العراق الذي .

كما كانت راعية وداعمة للديكتاتور السابق فهي من سلطة زمرة من الفاسدين والمتخلفين وأجلستهم على كرسي حكم العراق ليعيثوا فيه فسادا وتمزقه النزاعات العرقية والطائفية لإدامة نهب الرأسمال العالمي لثرواته ، وإبعاد قوى التقدم والحرية والمساواة من النهوض لأنها العدو اللدود لمصالح الرأسمال العالمي المتوحش ، فصنعت طناطلها من داعش وأخواتها لتحرق الثروات وتسلط شبح الخوف على الشعب وتحد من تطلعاته المشروعة نحو الرفاهية والسلام ، ولتديم تحت نيران حرائقها تسلط عملائها على سدة الحكم .

فكان ((هاتف بشبوش)) من ابرز الادباء اللذين وظفوا ادبهم وثقافتهم لمد وشائج الحب مع ابناء وطنهم والحفاظ على لحمة العراقية الحميمة بين العراقيين في الداخل والخارج بغض النظر عن العرق والجنس والدين ، لا يستثني من محبته سوى انصار الفاشية والطائفية والمروجين لقوى الاحتلال والاستغلال

ومن يحاول استغفال العراقيين وجرهم الى طريق العنف والاقتتال العرقي والطائفي ...

نحاول في هذه الاطلالة ان نعرض لبعض نتاج هاتف الادبية الرائعة التي يعرض فيها ويقدم العديد من اسماء منتجي الثقافة والأدب العراقيين من شعراء وقصاصين وروائيين مدوا السعد العراقية بالمزيد من شحنات الجمال والإبداع وإدامة نسغ الحياة في شرايين الادب والثقافة التقدمية الانسانية العراقية ومقاومة كل مظاهر التردي والتخلف والقبح السائد على الساحة السياسية والثقافة الرسمية للقوى المهيمنة على السلطة قبل السقوط وبعده ...

والسؤال هنا هل شهادة ((هاتف بشبوش)) بهؤلاء الادباء والكتاب مصدقة من قبل قضاة الجمال والإبداع ؟

نقول نعم وألف نعم وباقتدار للأسباب التالية :-

ان هاتف بشبوش يكتب صادقا لا مرائيا ولا متملقا ولا منتفعا من كتاباته واختياره لأسماء الادباء والكتاب الذي يكتب عنهم وحول نتاجاتهم ، وما اختياره لهم الا انه يجد فيهم اشقاء روحه ، يشاركونه في ابداعاتهم هم الانسان والوطن الذب هو محور اهتمامه ، فهذه الاسماء تحفل نتاجاتها بالانتصار لقيم الجمال والحب والحلم بالمساواة والسلام في كل العالم ، هذه الاسماء تشارك هاتف في هتافه :- يسقط القبح ... يسقط الظلم ... يسقط العنف نعم للجمال والسلام والمساواة والتضامن بين كل شعوب الارض.

والكلام الصادق ينتج حرفا مشبعا بروح الحب والإبداع والجمال ، يمتلك حرارة الحقيقة ، وعطر الحرية والوفاء ...

اغلب من اختارهم الهاتف من رفاق طريق الكفاح من اجل حرية واستقلال الوطن وسعادة وكرامة الشعب العراقي ، ممن ذاقوا مرارة سجون الانظمة الديكتاتورية وعذاب الغربة والتشرد ، قلوبهم ممتلئة بحب الناس البسطاء من الكادحين الحالمين بغد الاشتراكية المشرق .

بناء غد

من المثقفين الثوريين الذين اختاروا طريق الحرية والسلام والانحياز لمصالح الاغلبية المضطهدة والسعي لبناء الغد الاشتراكي باعتبار الاشتراكية هي حيز الحرية الحقيقية .كما ان هاتف ليس هاتفا مسطحا او هاتفا ثرثارا ، بل هاتف المتلئ وعيا وثقافة ، فمن يقرأ كتاباته يطلع علاى نص موازي للنص المكتوب عنه ، فهاتف يمدك بمعلومات وشواهد جمة من بطون الكتب ومن اجمل المشاهد المسرحية والتلفزيونية مما يصيبك بالذهول لسعة معرفته وإطلاعه والكم الهائل من المعلومات في خزينه الثقافي والمعرفي فيضيف للنص والشخص المدروس هاتفيا المزيد من العمق المعرفي والجمالي ويظهر صوره الابداعي كما يظهر المصور الصور السالبه في مختبره لتظهر بابهى وأوضح حال من حيث الالوان والتقاسيم والشكل والمحتوى الجذاب ، ان هاتف حينما يكتب ويدرس احدهم انما يشكل رافعة جمالية تضع النص قصة او قصيدة او رواية بأبهى والخ صورها امام عيون القاريء ويسيح به في عالم الجمال والخيال بما يشعر البعض انها خرجت عن سياق النص ولكنها في الحقيقة منبثقة من صلبه وإنما ساهمت بنجاح في كشف كل زوايا الجمال وعظمة الخيال وقوة الدلالة والمدلول التي يرمي اليها الكاتب وربما يغفل عنها القاريء غير المتخصص.

ورغم الضجيج المدوي لانهيار التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي فان هاتفا ومن ماثله من صادقي الانتماء لقضية العدل والحرية لم تنثني عزائمهم ولم تنحني قاماتهم امام رياح الرأسمالية حاملة عدوى الفقر والجهل والمرض ... لم يكن هاتف دخيلا على عالم الثقافة والأدب بل هو شاعرا رائعا ومتمكنا من ادواته الابداعية والجمالية مما يجعل ادواته النقدية مشبعة بروح الجمال والفطنة والتقاط الصور المستترة والظاهرة المعبرة عن موضوعها ، وهذه من اهم مميزات الشعراء ، فما اروعها حين تضاف الى الناقد الادبي فتثري خياله ودقة ملاحظاته وتحسس مواطن الجمال والقوة ونبذ مظاهر الضعف والترهل في النص . فكان هناك ترابطا ديالكتيكا بين الفن وطريق النضال والكفاح من اجل عالم افضل وكما قال البير كامي ((ليس النضال هو الذي يدفعنا الى ان نكون فنانين ، بل انه الفن الذي يفرض علينا ان نكون مناضلين)).

غلاف الكتاب

الحكومة ترقد في صالة الإنعاش والأوكسجين قد يحرقها

إستهواني هذا العنوان ، الذي فيه من الطبِ شيئٌ، ومن الكيمياء بعض الشيئ...

سؤال؟ لطالما سألتُ به نفسي؛وأسأل به القراء الأعزاء الان مَنْ هو المريض؟ العراق الوطن والتراب، أم الشعب الذي يُصفقُ لكل عُتَّلٍ زنيم، أم السياسي الذي تحكم بمصير هذا البلد ، ... أرى رؤوساً قد أينعت ، وحان قطافها، وأني لصاحبها... مقولةٌ قالها الحجاج وخضعت له الرقاب ، ولكن عبد الكريم قاسم قلبوا له ظهر المجّن ، قتلوه وفي جيب بدلته العسكرية التي لايملك غيرها مبلغٌ من بقايا راتبه، لايتجاوز ديناراً ونصف الدينار... لم يمتلك عقاراً ولا أطياناً ولاسعفات في دبي، ولا فنادق في عَمان وبيليروسيا وعواصم العالم الأخرى، كما فعلها تجار السياسة اليوم المتحكمين بمصير البلد المسلوب ...

العنوان والمقدمة هو حديثٌ دار بيني وبين أحد المزارعين من أهالي المشخاب الذين يُعرفون ، بأهل الحسجة (والحسجة في لهجتنا الدارجة هو الكلام الذي تقوله ظاهراً ولكن تقصد به شيئاً الاخراً)...قال الحاج المزارع وسأنقلها كما قالها بلهجته (عمي نجاح ، هذوله منين إجونه) تظاهرتُ بأني لم أفهم قصده، قُلتُ له منو تقصد،قال (هذوله السر..سر..الجاوين إكصصهم ، أهل المحابس ، أهل الوجوه الوسخه، تكول واحدهم طالع من المقبرة، الله يلعنهم دنيا والاخره، عمي طركاعه وكعت علينه، حراميه نشاله أخذوا كل مالتنه وحتى الشط نشفوه، عمي ذاك شط المشخاب الذي جان يتكالب مكالب هسه نشف ، شلب المشخاب اللي تعرفه راح ، منعونه من الزراعة ، وأخاف تكول تركيا كطعت الماي وسوت سد أليسو ، هذاك على دجلة إحنه أهل الفرات شعلينه، كطعوا أُميتنه وباجر النفس يكطعوه علينه، الله يكطعهم وينتقم منهم إنتقام عاجل كلمح البصر أو هو أقرب، عمي نجاح إنته إبن مومانه وتفتهم، أريد أسألك؟ صدك أكو تزوير بالأنتخابات فاحت ريحته، وصدك أكو مخانيث زوروا وهسه راحوا يصيرون نواب، الله الساتر... بس عمي أرد أكلك هاي الحكومة ماراح تتشكل، وهنا وصل الى بيت القصيد فتعمدتُ إثارته، وقلتُ له، راح تتشكل غصبن عل اليرضه واللي ميرضه، عندها إنتفض قائلاً بويه الحكومة نايمة بصالة الإنعاش الإيرانية وراح يخنكها لو يحركها الأوكسجين الأمريكي (ظهر لي أن الحجي خريج الخامس الإعدادي الفرع العلمي أيام زمان والدنيا كانت وياه حلوه وهو مترف) أثارت كلماته مزيداً من المشاكسة من قبلي معه، فأردف قائلاً خلصنه من طينه خايسه وكعنه بوحل أكثر خيسه، بس وين يروح المطلوب إلنه، كتله حجي من اديكم، كال والله صحيح تقشمرنه أول مره ، تقشمرونه المومانه (يعني المعممين) لكن البقية من إدينه، حيل ويانه ونستاهل، بس يبويه والله الاني وأهلي إنتخبنه المدنيين ، الشيوعيين ، شتسميهم سميهم، لأن هذوله خوش أوادم ميبوكون بأسم الدين ، واضحين ويشتغلون... إستمر حديثي معه ، فوجدته متفهماً ويحلل الأمور بشكل موضوعي ودقيق، سألني شتكول بقضية المغدورين على طريق كركوك منو المسؤول عن حمايتهم ، ويطلع العبادي سنقتص وسنمسكهم يبويه يريس هذوله ماتوا وأهلهم إنفجعوا بعد شيفيد قصاصك قابل ترجعهم لهلهم يبويه سمعنه منك هواي حجي من صرت ريس لليوم وجيب ليل وإخذ عتابه يبويه خضيناك وعرفناك بلا زبد). الكلام معه كان ذا شجون، وقبل أن يودعني، قال (الحكومة ماتتشكل والله يستر من تاليها).

نقلتُ مادار بيني وبين المزارع المشخابي بشيئ من الإختصار، وأنا بودي هنا أن أطرح بعض الملاحظات التي يعرفها أغلبنا.

أن امس الأحد المصادف 2018/7/1 إنتهت فيه دورة مجلس النواب البالغة أربع سنوات تقويمية وأصبحنا في فراغ تشريعي وصارت حكومة العبادي ، حكومة تصريف أعمال محدودة الصلاحيات، وهي مثقلة بتبعات السنوات الأربع الماضية، ومن جميع النواحي، لاأريد الخوض في تفاصيلها، وأنني أرى الاتي:

1- ستحصل مشاكل كثيرة خلال عملية العد والفرز وبعدها وستظهر النتائج مغايرة لما هو متوقع وهذا السيناريو مُعد سلفاً في دهاليز السياسة الخارجية ومطابخها.

2- ستستمر الحوارات والمفاوضات بين الكتل والتيارات المختلفة لتشكيل الكتلة الأكبر التي ستؤلف الحكومة الكسيحة المقبلة، تحت خيمة خارجية ولكنها لن تتشكل لأسباب معروفة.

3- ستحصل صراعات كبيرة وقوية بعد عملية العد والفرز وسيكون بعضها مسلحاً.

4- ونتيجة لذلك ستفشل حكومة تصريف الأعمال، ولاتولد الحكومة الخديجة المرتقبة، والتي تعاني سكرات الموت في ردهة العناية المركزة، لأنها ستحترق بغاز الأوكسجين الذي وصفه المزارع المشخابي وعندها سيُصار الى حكومة طوارئ.

وقانا الله شرّ الأيام القادمة.

نجاح سميسم
النجف

الثقة بالنفس

ان النفوس الكبيرة تناقش المبادئ الكبيرة وان الانسان يكون قويا بعقيدته ان كانت سليمة يتباهى بها فقد قالوا ان الانسان يملك اعظم جهاز لصنع الحياة والمستقبل هو العقل.. فعليه ان يستخدمه ليصنع حياته.. كلما تحرك الانسان اقترب من هدفه اذ لايوجد ما يسمى بالطريق المسدود.. فأرادة النجاح تجعل كل الطرق مفتوحة وتزيل كل السدود.. ولكن عليه ان يتحرك الحركة الموجبة المخطط لها من اجل تحقيق سلسلة الاهداف التي يرغب في تحقيقها.. ولكي يتفوق الانسان على نفسه يجب ان يكون قويا لايخشى ممارسة التجارب واقتحام العقبات مهما كانت..

اذ ان الخطر هو محك الارادة والمعرفة، فهو الذي يبرز في الفرد امكانيات التفوق.. اما الضعف فهو الذي يجعل الفرد يتأرجح كل يوم وكل لحظة امام اي ظرف وفي كل تجربة. فليست الاشياء والاحداث التي يراها المرء ويستمتع بها هي منبع السعادة او الشقاء.. ولكن منبعها هو حالة ذهنية او عقلية تستطيع ان تضفي صفاتها على الاحداث.. فاذا كان الانسان في حالة ذهنية او عقلية راضية سعيدة.. تكون الاحداث في نظره مرضية ويتغاضى عن اي حدث يكون مخالفا لرغبته.. بمعنى ان ينظر الى احداث حياته نظرة اوسع افقا ويفسرها تفسيرا يتماشى مع حالته الذهنية او النفسية السعيدة.. والعكس اذا كان الانسان في حالة نفسية غير سعيدة انعكست على هذه الحالة على جميع الاحداث التي تمر بحياته حتى لو كانت احداثا غير مؤلمة. كذلك ايضا لكي يتفوق الانسان على نفسه عليه ان يقهر الخوف داخله مما يسببه هذا الشعور من الم ذهني حاد خصوصا انه حادة ما يصور الواقعة بصورة اسوأ من حقيقتها وحجم يفوق حجمها..

فيعيش في اسف على ماض لايمكن استرجاعه.. وفي مخاوف من مستقبل مجهول لايستطيع ان يتنبأ به.. ان هناك نوعية من الناس تحترف هذه المشاعر.. ايضا هناك نوع اخر من الناس يتقنون فن الحزن ويبذلون كل مافي وسعهم لكي يحتفظوا باحزانهم.. دون ان يتركوا للطبيعة دورها وقدرتها على محو هذه المشاعر وازالة اثار الاحزان على مر الايام. ان تتفوق على النفس.. هي ان تستطيع تحقيق السعادة.. والسعادة كما وصفها كثير من علماء النفس هي خليط من الحب والقدرة على الابتكار والخلق.. فالشخص الذي لايقضي الساعات أو الايام.. او السنين مع شخص اخر يحبه.. لايستطيع ان يعرف ماهي السعادة.. لانه عاجز عن ان يتصور مفعول الحب على حياة الفرد.. وبأنه يأتي بالمعجزات..

بل انه المعجزة التي تصنع من المناظر والاحداث العادية.. حياة حافلة بأروع السحر.. فماذا يفعل حب الامومة بالأم.. وحب الصداقة بالجانب الاجتماعي للفرد.. وحب العمل بنجاح الانسان في حياته العملية. فبدلا من ان تعيش في صراع.. وفي تحطيم سعادتك وسعادة من حولك من اجل هذا الصراع.. تفوق على نفسك لا يمكن استرجاعه من جديد او تخشى من مستقبل مجهول لاتستطيع ان تتنبأ به.. بل اجعل الحب بغلق حياتك لتكون للحياة معنى.. وتكون السعادة حقيقية..

وتكون موضع حب واهتمام الكثر من حولك. فقد قالوا "ان السعادة تزهر حيث توجد السعادة".. يامحلا الصدق والهدف النبيل الذي يخدم كل الانسانية بل لكل الحياة ومن عليها وكل ما يراه نافعا لتقديم الخير والمحبة ويستطيع تقديمه لكل خلق الله تعالت قدرته.. فأن الله لم يخلق شيئا عبثا فنعم الرب الرحيم الكريم.

عبد المحسن عباس الوائلي
بغداد

استطلاعات

الشعور بالرضا يتقدّم أولاً ويتّصل بالمال

ماذا يتميز الشعب الأكثر سعادة في العالم ؟

لندن - كيت ليفير

احتلت فنلندا مركز الصدارة في تقرير السعادة العالمي لعام 2018، لكن ما الذي يجعل الفنلنديين ينظرون إلى هذا الأمر بصورة مختلفة؟

راقصة باليه تترك حقيبتها على مقعد في إحدى الحدائق، ثم تمضي، وفي لحظة من الغفلة تترك وراءها الحقيبة الصغيرة وفيها نقودها ومقتنياتها الشخصية. وبعد مضي ربع ساعة، تدرك ذلك. لكنها لم تتصرف بذعر ولم يتكون لديها ذلك الشعور بالقلق. فهي على ثقة بأن حقيبتها ستكون بالضبط في المكان الذي تركتها فيه. وبالفعل، عندما عادت أدراجها، وجدت حقيبتها حيث تركتها، فأخذتها وهي تشعر بسعادة غامرة.

ساعدني في حل هذا اللغز: إذا كانت راقصة باليه لا تكترث لفقدان مقتنياتها الشخصية، فأين يمكن أن يكون مكان إقامتها في هذا العالم؟ إنها فنلندا، حيث تعيش راقصة الباليه مينا تيرفاماكي.

"أشعر بالأمان هنا. من أهم الأشياء التي يشعر بها الناس في فنلندا هو الأمان. نحن نثق في بعضنا البعض"، كما تقول تيرفاماكي التي رشحتها العام الماضي شركة "بوسيتيفاريت أوي" للقب أكثر الأشخاص إيجابية في فنلندا. وتعرف تلك الشركة بمنتجاتها التي تساعد على التفكير الإيجابي.

وحسب تقرير السعادة العالمي لعام 2018، فإنه بناء على بحث أجرته مؤسسى غالوب العالمية للأبحاث، فإن فنلندا هي أسعد بلد في العالم. لكن الفنلنديين ليسوا واثقين بهذه النتيجة لأنهم كما يقولون صنف معتاد من البشر الصبورين. يقول مايك ويكينغ، المدير التنفيذي لمعهد أبحاث السعادة، وهو مؤسسة بحثية مستقلة في فنلندا تركز على دراسات الرفاه المعيشية والسعادة: "شعوب دول الشمال، والفنلنديون منهم بشكل خاص، يتصفون بالانطواء، ومن النادر أن يحتلوا مكانة متقدمة في التعبير عن الفرح أو الغضب، فهم مختلفون جداً في هذا عن شعوب أمريكا اللاتينية على سبيل المثال، التي تعبر عن عواطفها بشكل قوي. وبالنسبة للفنلنديين، السعادة تتعلق أكثر بالعيش المحافظ والمتوازن، والقوة في مواجهة الصعاب".

ويطلق اسم دول الشمال على منطقة جغرافية تمتدّ عبر شمال أوروبا وشمال المحيط الأطلسي، وتضم دول آيسلندا والدنمارك والسويد وفنلندا والنرويج وأولاند وغرينلاند، وجزر الفارو.

وتتفق تيرفاماكي مع هذا الرأي، وتقول: "لدي مشاعر متناقضة جداً تجاه تقرير السعادة. الفنلنديون يقرأونه ويضحكون قائلين: ماذا؟ نحن؟ والذي يتبادر إلى ذهني هو أن الفنلنديين يشعرون بالرضا أكثر من كونهم سعداء".

صورة الحياة

جون هيليويل من جامعة بريتيش كولومبيا، والذي شارك في تحرير تقرير السعادة العالمي، يفسر الأمر بأن قياس السعادة ليس دراسة عاطفية على الإطلاق، لكنها في الحقيقة لها علاقة أكبر بالمال. فهي إذن نظرة إلى نوعية وجودة الحياة حول العالم، وبهذه المعايير والمقاييس، جاءت فنلندا هي الأقوى لهذا العام.يقول هيليويل: "العوامل التي تساهم في جودة الحياة هي حياة صحية، ونصيب قوي للفرد من الناتج المحلي الإجمالي. لكن هناك أموراً أخرى مثل القدرة على رعاية الناس لبعضهم البعض، ووجود شخص تعتمد عليه في أوقات الشدة، وحرية اتخاذ القرارات المتعلقة بحياتك الشخصية. إنها أمور تتعلق بالثقة والسخاء، وتتبوأ فنلندا مكانة مرموقة للغاية في هذه الأمور".

ويضيف: "تميل شعوب شمال الكرة الأرضية إلى نمط مسطح من النسيج الإجتماعي، تقل فيه عدم المساواة، وتسود فيه القدرة الأفضل على المساندة والوقوف بجانب المحتاجين ومن هم أقل حظاً. كل هذه الأشياء من شأنها أن تجعل هذه الشعوب تتبوأ مكانة عالية في أي اختبار يطلب منهم فيه أن يصنفوا مستوى جودة حياتهم".

الدكتور فرانك مارتيلا، الباحث في علم النفس الإجتماعي في جامعة هيلسنكي، يتفق مع هذا التفسير ويقول: "الثقة أمر له مكانة كبيرة هنا. يوجد لدى الناس رغبة في أن يكونوا جديرين بالثقة. إذا أسقطت محفظة نقودك في الشارع، فبإمكانك أن تكون واثقاً تماماً من أنها ستعود إليك، عادة بما فيها من نقود".

ويضيف: "مجلة ريدرز دايجست أجرت في الواقع اختباراً على هذا الأمر ذات مرة. فمن بين جميع المدن التي أجريت عليها الدراسة كانت هيلسنكي أكثر مدينة أعيدت فيها محافظ النقود لأصحابها. لا عجب إذن أن تكون الثقة في الغرباء هي الأعلى في فنلندا من بين بقية البلدان الأوروبية".للمرة الأولى هذا العام، طلب تقريرالسعادة العالمي من المهاجرين المشاركة في الاستطلاع المسحي، وكان مستوى السعادة للمهاجرين مطابقاً من الناحية العملية لنتائج المسح على السكان بشكل عام، وكانت فنلندا على رأس القائمة. وبكلمات أخرى، كل من السكان الأصليين والمهاجرين في فنلندا يعيشون بمستوى واحد من السعادة. وهذا أمر مثير لأنه عملياً يدحض النظرية القائلة أن السعادة مقتصرة على الفنلنديين أو شيء يختص بهم وحدهم.

يقول هيليويل: "النظر إلى سعادة المهاجرين يبدد النظرية القائلة إن مجتمعات شمال أوروبا منغلقة ومتجانسة. إذا كانت السعادة متعلقة بشيء في التركيبة النفسية للفنلنديين، فهي عملياً متوفرة وبشكل متساو لشخص قادم من بنغلاديش. لذا، فإن السعادة لها علاقة أكبر بالطريقة التي تدار بها البلاد".

تدار فنلندا بسياسات تنم عن احترام عميق وكبير لحقوق الإنسان. فهي إحدى أفضل الأماكن في العالم لكي تكون المرأة أماً، وتمتلك أحد أفضل نظم التعليم في العالم. وهي مميزة بشكل واضح في سياساتها المتعلقة بالبيئة والمساواة بين الجنسين والتوازن بين العمل والحياة.

وهذه الأشياء التي تجعل الناس في بلد من البلدان يظهرون سعادة ورضاً بحياتهم أكثر من غيرهم، سواء كان أو لم يكن من طبيعتهم أو من ثقافتهم أن يظهروا سعادتهم بها. من الممكن عملياً أن تكون عابساً في الظاهر، وفي نفس الوقت أن تكون "أسعد من على وجه الأرض".

"إذا قال لك الفنلنديون أنهم ليسوا سعداء، فأنا أتفهم ذلك"، كما تقول الفنلندية آنو بارتانين مؤلفة كتاب "النظرية الشمالية لكل شيء: البحث عن السعادة"، والتي تعيش في الولايات المتحدة منذ عقد من الزمان لكنها تخطط لإعادة عائلتها هذا الصيف.

مشروبات كحولية

وتضيف بارتانين: "الفنلنديون متشائمون بطبعهم ومحافظون فيما يتعلق بعواطفهم. وهم يكثرون من تناول المشروبات الكحولية، وبلادهم معتمة، وشتاؤها بارد وصعب التحمل من الناحية النفسية. هذه السعادة الفنلندية التي نسمع عنها لا تتعلق بالرقص أو الضحك. إذا كان ذلك مفهومك عن السعادة فهم إذن ليسوا أكثر الشعوب سعادة. هذه الدراسات تتعلق بجودة الحياة، لهذا تجدها تضع فنلندا على رأس قائمة البلدان السعيدة".

وتتابع بارتانين: "هل تعيش أفضل حياة ممكنة؟ هل يمكنك التحكم بحياتك؟ هل تتعدد لديك الخيارات؟ هل يمكنك قضاء وقت مع عائلتك؟ هل تشعر بالأمان؟ هل يمكن أن تكون منتجاً في مجتمعك؟".

القمع العاطفي أو الانطواء الذي يُعرف به الفنلنديون ربما يتعلق بمفهوم تقليدي يطلق عليه اسم "سيسو"، وهي كلمة فنلندية تعني إظهار القوة والصبر والتحمل، وهي جزء مهم من الهوية الفنلندية.

وجزء من الأسباب الكامنة وراء ميل الفنلنديين بشكل عام ومميز إلى عدم إظهار كثير من العواطف هو أنهم يقيمون وزناً وقيمة كبيرة للشجاعة وقوة التحمل والصبر، وليس الفرح بطريقة غريبة وغير معتادة، وربما كان هذا هو السبب في أنهم يشعرون بالحيرة من تتويجهم بلقب أكثر الشعوب سعادة.

ابحاث السعادة

ويقول ويكينغ: "أتفهم لماذا يقول الفنلنديون: "حقاً؟"، "نحن؟". الدنماركيون والنرويجيون لديهم نفس رد الفعل. ينسى الناس عادة ما الذي نقيسه عندما نجري أبحاثا حول السعادة، وينسون أيضا أن الأمر يتعلق بالمتوسط العام على المستوى الوطني. وربما كان من الأكثر دقة القول إن الفنلنديين هم أقل الشعوب تعاسة في العالم. فهم في العادة يجيدون التقليل من الأسباب التي تسبب التعاسة".ويضيف ويكينغ: "فأمور مثل التوتر الناتج عن نقص المال، والعوائق أمام الرعاية الصحية وعدم توفر المأوى والمسكن هي أشياء تجعلنا نشعر بالتعاسة. وهم ببساطة جيدون في تحويل الثروة إلى رفاهية".ويقول ويكينغ إنه عندما تنشر هذه البحوث المتعلقة بالسعادة، يكون هناك قدر كبير من حب الاستطلاع لمعرفة أي الشعوب التي تحتل مكانة مرموقة في القائمة. فنحن بطبيعتنا نعجب بالشعوب التي تحقق السعادة، تلك الحالة العاطفية العظيمة التي نصبو إليها جميعاً، كما ينتابنا الإعجاب أكثر بفكرة أن شعباً بكامله يعيش في سرور.

وهناك اهتمام أقل بالشعوب التي تتبوأ مكاناً منخفضاً في قائمة الشعوب السعيدة، مثل سوريا وليبيريا وأفغانستان، لأن التعاسة أمر بادي الوضوح. إذا اعتقدنا أن هناك سراً ما في السعادة الفنلندية، فربما كان هذا السر هو العيش في مجتمع يقدر بشدة قيم الثقة والسخاء.يقول هيليويل: "عندما تنشر تلك الأبحاث يقول الجميع: هل تريد أن تكون سعيداً؟ انتقل للعيش في فنلندا. لا يمكن أن نكون جميعاً في أكثر الأماكن سعادة على وجه الأرض. فهذه الأماكن لن تكون الأكثر سعادة إذا أقام فيها كل البشر".

ويضيف: "جوهر هذه الدراسات يتعلق أكثر بكيف يمكن أن نفعل ما يفعله السعداء، وما الذي يفعله الفنلنديون بطريقة صحيحة، وكيف يمكننا أن نجعل العيش أفضل لنا وللآخرين؟ هذه هي الأسئلة التي ينبغي أن نطرحها. أما بالنسبة للفنلنديين، فما عليهم إلا الاسترخاء والاستمتاع بسعادتهم".

أحد مراسي فنلندا التي أعلنت أسعد دولة في العالم في تقرير السعادة العالمي لعام 2018